قوس قزح

الزراعة والهدأة

جمانة طه

إذا كانت الزراعة اقتصاداً، وهي الخطوة الأولى إلى الحياة المدنية وبداية المجتمع، فإن المرأة هي صاحبة الفضل في هذا وفي ذاك. فهي التي وضعت يدها على أول كشف اقتصادي وهو معرفة ما تنطوي عليه تربة الأرض وما يمكن أن تخرجه من طيبات، فكانت تنكت الأرض القريبة من كوخها وتجمع ما تصادفه من نباتات وجذور تؤكل، غير ناسية الأشجار وثمارها وأوراقها، وسوى ذلك مما تنتجه الطبيعة.

وبهذا أمسكت المرأة بمفتاح الاستقرار في المكان، هذا الاستقرار الذي شكل الملامح الأولى للثقافة الإنسانية، فالثقافة ترتبط بالزراعة مثلما ترتبط المدنية بالمدينة. فعندما وجد الإنسان في الزراعة الوسيلة الناجعة لبقائه في مكان يشكل مخزناً لقوته اليومي، عمل على تطهير البقعة من الأرض التي يعيش عليها من الحيوانات الكواسر، فبسط سيادته عليها وكافح الجفاف والفيضان وأملاح التربة والصقيع وحفر الأقنية لجر المياه إليها، وحولها إلى حقول مخصبة مثمرة ينبت فيها الأرز والقطن والكتان والذرة والتوابل والخضراوات والفواكه.

وإذا عدنا إلى الوراء يذهلنا تكيف الإنسان مع البيئة وقدرته على الخلق والإبداع، ففي البداية حرث التربة بيديه وقلبها بقدميه، إلى أن استطاع أن يصنع الفأس والمحراث من الأخشاب أولا ثم من الأحجار وأخيراً من الحديد.

وما دمنا في رحاب الأرض فلا بأس من الإشارة إلى أن الأقوام القديمة ربطت بين الأرض والمرأة، فالأرض في عرفهم هي الأم الكبرى، والمرأة لأنها مخلوق خصب تلد وتخرج من جوفها الأطفال، فهي أم البشر والإنسانية. وقد أخذ فعل الولادة بلب الرجل البدائي وشغافه، ودعاه إلى تقديس المرأة وتأليهها، فكانت الإلهة عشتار وأخريات غيرها تحت مسميات مختلفة. ومع أن هذا الإنسان أوجد إلهة لكل ناموس من نواميس الطبيعة، إلا أنه جعل إله النبات سيدة الآلهات جميعهن.

وتشير البحوث إلى أن بعض الأقوام القديمة قدسوا الأرض ونصّبوها إلهاً، كما قدسوا الأشجار لاعتقادهم أن لها أرواحاً مثل الإنسان، فحرموا قطع الشجرة لأن في ذلك قتلاً للروح. في حين كان الهنود الحمر يرون في الشجرة تميمة تقيم من الأهوال، حتى أنهم كانوا يعزون هزيمتهم وانحلالهم إلى قطع الرجل الأبيض الأشجار التي كانت أرواحها تحميهم من الأذى.

وفي بعض الجزر كانوا ينظرون إلى الأشجار في أيام الإزهار نظرة تقديس لأنها حوامل أجنة، فلا يجيزون ارتفاع الصوت في جوارها أو إشعال النار حولها أو سوى ذلك من عوامل الاضطراب حتى لا يفسدون عليها سكونها، وإلا تسقط الثمار قبل أن تنضج مثلما تجهض المرأة إن ألمّ بها رعب أو أحست بفزع.

كما لم يكن مسموحاً بالأصوات العالية في حقول الأرز، في أثناء مرحلة إزهار السنابل خشية أن يصيبها الإجهاض فتنقلب أعواداً من القش العقيم.

ومن الطريف أن نذكر أنه في القديم كانت بعض الشعوب تختار للربيع ملكاً وملكة من بين رجالها ونسائها وتزوجهما في حفل علني، لعل التربة تصغي إلى الحفل وتفهم مغزاه فتسرع إلى إزهار النبات. إنه طقس غايته الإيحاء للأرض في فصل الربيع، لتخرج عن تحفظها الذي التزمت به طيلة أيام الشتاء، لتتقبل ما وضع فيها من بذور وتهيأ نفسها لإخراج أفضل نتاج وأجود محصول.

سبحان الذي بسط الأرض، وأخرج منها نباتاً وحبا.

أليست الأرض هي الأم الكبرى.